فى تاريخ الادب التركى

للاستاذ عطا الله ترزى باشى

تحدثت إلى القراء فى أعداد الرسالة السابقة (١) عن تاريخ الأدب التركى فى عصوره المختلفة منذ النشأة حتى أوائل العهد العثمانى بصورة عجلة

وأعود اليوم إلى مواصلة البحث بدراسة الأدب العثمانى دراسة عاجلة ؛ على أن أترك أمر التفصيل والتمحيص فيها للقراء يراجعون المصادر التى استقيت منها مواد هذا المقال

وأود قبل الخوض فى مواد البحث أن أشير إلى أن الأدب التركى فى هذا العهد لم يكن أدباً منحصراً فى المناطق التى شملها الحكم العثمانى فقط ، وإنما كان نطاقه ممتدا إلى بلاد غير خاضعة للحكم العثمانى ، يقطنها الأتراك . فهناك الأدب الآذرى ، وهو فرع هام من فروع الأدب التركى المنتشر فى أرجاء العجم وبلاد الآذربيجان : وقد نشأ بعد انقراض السلجوقيين وظهور المغول فى تلك الأنحاء ، ونما نموا سريعاً حتى تخلفات فروعه فى الأدب العثمانى ، وعاش متأثرا به ومؤثرا فيه ، محافظاً على صبغته الآذرية حتى اليوم . وقد آثرنا أن نتحدث — عند الكلام عن الأدب العثمانى — عن هذا الأدب بإيجاز ، وذلك وفق ما يتطلبه الحاجة ويهواه المقام (٢)

وهناك بجانب الأدبين العثمانى والآذرى الأدب الجغتائى ، وقد انتشر فى مناطق (الخوارزم وآتون أوردو) . نبغ فيه أدباء مفكرون وشعراء معروفون ؛ وقد انتقل إلينا كثير من الآثار التى ألفوها فى مواضيع الدين والأخلاق والتصوف . ويعد (قطب) أول شاعر جغتائى نعرفه . له منظومة تركية قيمة بعنوان « خسرو شيرين » (٣) . وكذلك (خوارزمى) من شعراء الجغتائية المعروفين الذى اشتهر بكتابه المنظوم « محبة نامه » (٤) وغيره من الشعراء كثير ، سواء عاشوا فى بداية تأسس الحكم العثمانى (٥) أو ظهروا فى القرون التى تلتها (٦)

وهناك أدب المماليك ، وظهر بين الأتراك الذين عاشوا فى مصر زمناً وأسسوا لهم إمارات صغيرة هناك . وتميز هؤلاء بنشاطهم الأدبى الفعال وقدرتهم العظيمة على تنظيم الحركة الفكرية فى البلاد . نشأ منهم عدد لا يحصى من العلماء والشعراء ، وقد تركوا آثارا فكرية كثيرة ومؤلفات أدبية قيمة . ويعد الشاعر (سيف سرائى) أشهرهم ، وهو الذى ترجم كتاب « كلستان » للشاعر الإيرانى (سعدى) إلى التركية نظما

وهكذا فإن نظرة عاجلة فى الأدب التركى تطلعنا على أن هذا الأدب كان متفرعاً عند ظهور العثمانيين إلى عدة فروع هامة ، منها العثمانى والآذرى والجغتائى والمملوكى . . . ولقد امتد أثر الأدبين الجغتائى والآذرى قروناً طويلة وذلك بامتداد الأدب العثمانى ، حتى فقد الأول منهما مميزاته الجوهرية الخاصة واندمج فى غيره من الآداب (التركية) . ولا يزال الأدب الآذرى قائماً بنفسه ، محافظاً على مقوماته الأساسية حتى اليوم . أما الأدب العثمانى ، وهو موضوع دراستنا ، فقد انقرض تدريجاً بعد زوال الحكم العثمانى وظهور الدولة التركية الحديثة ، وغدا اليوم أدبا تاريخيا مقصوراً على بعض الأندية الأدبية وعدد قليل فى الوقت الحاضر شعراء محصورون .

وانتقل الآن إلى العهد العثمانى ، وقد رأينا أن نتبع فى تقسيمه إلى الأدوار هذا الشكل :

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٩٧٨ و ٩٧٩

(٢) وللاستفاضة فى دراسة الأدب الآذرى راجع عن هذه المادة الأستاذ فؤاد كوبريلى فى دائرة المعارف الإسلامية « الترجمة التركية » . وراجع أيضا دائرة المعارف التركية « إينونو » ج ٤ ص ٢٤٧

(٣) والمخطوطة الوحيدة منها محفوظة فى دار الكتب الفرنسية بباريس تحت رقم ٣١٢ Ancien Fond Turc

(٤) انظر للؤاد كوبريلى فى كتابه « تتبعات فى اللغة التركية وآدابها » ص ٢٣٧ — ٢٥٢

(٥) راجع من هؤلاء الأستاذ نهاد سامى فى تاريخ الأدب التركى المصور ص ١٠٨

(٦) وقد تعرضنا لمن حياة البعض منهم فى هذا المقال

(أولا) صدر الدولة العثمانية (ثانيا) دور الدواوين
(ثالثا) دور التنظيمات (رابعا) دور ثورة الفنون

صدر الدولة العثمانية :

ويبتدئ هذا الدور ، حسب ما نراه ، من وقت تأسس الدولة العثمانية (سنة ١٣٠٠ م — ٦٩٩ هـ) حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

ويتميز الشعر فى هذا الدور بنقاوة اللغة وسلاسة الألفاظ ورقة الأسلوب وقلة التكلف . فكان الشعراء يتجنبون غالبا استعمال الكلمات الغريبة فى أشعارهم ويفرون من التصنع والتلاعب بالألفاظ . ولذا فإن شعرهم يمثل باستثناء أشعار بعض المتأخرين من الشعراء أبدع ما نظمه الشعراء العثمانيون على الإطلاق

وامتاز هذا الدور بشيوع (المثنوى) بين الشعراء شيوعا هائلا ، إذ لا يخلو أثر من الآثار التى ألفها الشعراء فى هذا الدور من شعر المثنوى

والمثنوى لون من الشعر اشتهر به الفرس منذ القديم . فنظموا به الملاحم التاريخية الكبرى والقصص الخيالية الرائعة أمثال « الشاهنامه » للشاعر الفارسى العظيم (فردوسى) . و« المثنوى » لمولانا جلال الدين الرومى . وقصة « يوسف عليه السلام » وقصة « ليلى ومجنون » وغيرها كثير.. ويميز المثنوى عن غيره من الأشعار وجود القافية بين شطرى كل بيت من أبيات المنظومة؛ ولا يشترط اتحاد الأبيات فى القافية إذ يكفى أن يكون شطرا البيت مقفيين(٧)

ولشعراء الأتراك آثار شعرية كثيرة جرت مجرى المثنوى . وقد امتاز شعراء هذا الدور بتعصبهم لنظم المثنوى . فلا نكاد نرى شاعرا إلا وشغل نفسه بهذا النوع من الشعر

وأول من اشتهر منهم فى نظم المثنوى (مصطفى شيخ أوغلو) صاحب المثنوى المعروف « خورشيد نامه » ومترجم كتاب « كليلة ودمنة » إلى اللغة التركية . وقد عاش هذا الشاعر فى عصر السلطان يلدرم بايزيد . وكذلك الشاعر المشهور (عاشق باشا) (سنة ١٢٧٢ — ١٣٣٣ م) وقد اشتهر بمؤلفه « غريبنامه » فى التصوف والأخلاق . وهو كتاب قيم يقع فى اثنى عشر ألف بيت من الشعر ، فى أوله مقدمة فارسية تتبعها قصائد تركية فى نعت الإله ومدح الرسول ووصف المشاهير من المسلمين ثم يليها أبواب الكتاب العشرة ، وكل باب مقسم إلى عشرة فصول تتضمن ملاحم شعرية مختلفة فى وصف الجنة والجحيم والدنيا والآخرة والسماء والأرض والعناصر الأربعة فى تكوين الحياة . . الخ

ومن شعراء هذا الدور ، (كاشهرى) وقيل إنه عاش قبل (عاشق باشا) بمدة . له منظومة مترجمة من كتاب « منطق الطير » للشاعر الفارسى (عطار)

احمدى :

ويعد زعيم الشعراء فى عصره . ولد سنة ١٣٣٤ م فى مدينة (كوتاهيه)(٨) أو فى مدينة (كرميان) من ولاية (بروسه) وذلك فى سنة ٧٣٥ هـ حسب ما ذكره طاشكبرى زاده ، كما وأن لطيفى صاحب تذكرة الشعراء ذكر أن مسقط رأسه هو مدينة سيواس حيث درس فيها العلوم وارتحل بعد ذلك إلى القاهرة ، وكان يتردد هناك على مواطنيه حاجى باشا الذى اشتهر فى الطب ومولانا محمد شمس الدين الفنارى . وعند عودته إلى وطنه الأصلى التحق بخدمة أمير كرميان(٩)

وأدرك أحمدى غزوة تيمورلنك فى البلاد العثمانية ، وحظى عند هذا الطاغية وأصبح نديما له . ويروى عنهما لطائف كثيرة ، وقيل إنه لم يعجبه البقاء عند تيمورلنك فالتحق بخدمة الأمير

---

(٧) كما فى نظم إبان بن عبد الحميد قوله فى باب الثور والأسد من نظم كليلة ودمنة :

وان من كان ذى النفس يرضى من الأرقم بالأخس .. الخ المنظومة .

وليحث المثنوى فى الأدب التركى انظر الأستاذ إسماعيل حبيب فى كتابه « أدبيات يلكيلرى » ص ١٤٢ — ١٤٦

(٨) نهاد سامى : المرجع السالف الذكر ، ص ١ .

(٩) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ١ ، ص ٥٠٢ وقد التبس على المترجم العربى تعريب « كرميان » فكتبها فى مواضع عدة على شكل « كرمان »

سليمان من أبناء السلطان بلدرم بايزيد ، وظل يصاحبه حتى مات السلطان فعاد أحمدى إلى أماسيه

وأحمدى شاعر مبدع ، وأهم ما يمتاز به هو إدخاله المواضيع الدنيوية فى الأدب التركى الغربى . ويعتبر كتابه « اسكندر نامه » أول مؤلف تركى قصصى بأسلوب الملاحم، فقد وصف فيه حروب الملك إسكندر المقدونى فى (٨٢٥٠) بيتاً من الشعر (١٠) ويتضمن هذا الكتاب آراء فلسفية طريفة وأبحاثاً فى الطب قيمة. ولأحمدى ديوان نفيس ضم مجموعة من أشعاره فى القصائد والغزل، وله منظومة بعنوان « جمشيد وخورشيد » . وهى مثنوى يحتوى على خمسة آلاف بيت من الشعر . وقد عثر على هذا الكتاب قبل عشر سنوات وبضع سنين الأستاذ نهاد سامى وحققه مع كتاب آخر لأحمدى هو التاريخ العثمانى فنشرهما فى مجلد سنة ١٩٣٩

أرب السلاطين .

ويعد السلطان عثمان غازى مؤسس الدولة العثمانية أول من نظم الشعر بين السلاطين . له منظومات شعرية بديعة فى الحماسة (١١)

وهناك سلاطين كثيرة اشتغلوا فى ساحة الأدب منهم السلطان بايزيد الثانى والسلطان مراد الثانى من شعراء هذا الدور، ويعد الأخير أول سلطان عثمانى جمع أشعاره فى ديوان خاص (١٢) . ويعتبر السلطان محمد الفاتح أثقف سلطان عثمانى على وجه الإطلاق . فقد كان هذا السلطان يجيد ، بالإضافة إلى اللغة التركية ، اللغات العربية والفارسية (وله فيهما أشعار) والعبرانية ولغة الصرب (١٣) . وقيل إنه تعلم اللغتين اليونانية واللاطينية أيضا (١٤) ، وهو شاعر مجيد ، اختار له فى الشعر اسم عونى مخلصاً (١٥)

وكان السلطان بايزيد الثانى ، ابن السلطان محمد الفاتح ، شاعراً وعالماً . وكذلك كان أخوه السلطان (جم) شاعراً مبدعاً له مكانة مرموقة فى الأدب التركى . وأشعاره فى غاية من الرصانة . وكلها فى الحزن . . فقد لاقى السلطان فى حياته أنواعاً شتى من الهموم وألواناً مختلفة من العذاب عالا يتحمله الإنسان.. لقد دب دبيب الفساد بينه وبين أخيه على السلطنة فأغواهما الشيطان حتى تقاتلا ، وقدر له وجيشه أن ينهزم . ففر إلى أوربه ، ووقع بيد البابا الذى وعده خيراً ولكنه لم يف. فلقى السلطان حتفه من كأس هيئت له وفيها سم مميت

ووقائع هذا السلطان مشروحة فى المصادر التاريخية بكل اهتمام (١٦) . ولهذه الوقائع علاقة وطيدة بشعره . فهو يصف به آلامه ومصائبه بأسلوب عاطفى فياض يبعث فى النفوس الألم ، ويحدث فى القلوب كلوماً لا تلتئم

مميزات هذا الدور

ذكرنا أن هذا الدور كان قد امتاز بكثرة ما نظمه الشعراء من المثنوى ووفرة ما أنتجه رجال الفكر والأدب من الملاحم والقصص . ونضيف إلى ذلك بعض الميزات الأخرى . وأول ما يبدو إلى الذهن فى هذا الخصوص هو ما نلحظه من الاهتمام الشديد بالأدب الشعبى والعناية البالغة به . وقد ظهر شعراء سلكوا مسلك الصوفى المعروف الشاعر الشعبى (يونس أمره) ؛ منهم (سعيد أمره) ؛ من منتسبى الطريقة البكتاشية . . و(قايغو سز آبدال) الذى عاش فى دور السلطان مراد الثانى.. و (حاجى بايرام) مؤسس الطريقة البايرامية فى الأناضول . . و(اشرف أوغلو) المتوفى سنة ١٤٦٩م وغيرهم من الشعراء الذين كانوا متأثرين بأدب (يونس أمره) وبأسلوبه فى الشعر

وإن من أهم ما يختص به الأدب الشعبى فى هذا الدور نشوء القصص الحديثة . وقد ظهرت هذه القصص تحت عنوان « حكايات دره قورقوت » . وهى تعتبر كنزاً ثميناً للأدب

---

١٠) دائرة المعارف نفسها

١١) حيد وهبى : مشاهير الاسلام ، ج ١ ص ٥١

١٢) فطين : تذكرة الشعراء

١٣) وفى تحقيق معرفة السلطان لهذه اللغة مقال ممتع للأستاذ أحمد جعفر أوغلو فى مجلة أولكو العدد ٤٣

١٤) نهاد سامى : المرجع السابق ص ١٣٣

١٥) المخلص هو الاسم المستعار الذى يكرره الشاعر فى نهاية شعره . والغالب أن يرد هذا الاسم فى البيت الأخير من الشعر. وهو خاص بالشعرين التركى والفارسى

١٦) للمؤرخ الشهير أحمد رفيق مؤلف نفيس عن حياة السلطان جم باللغة التركية القديمة ١٩٢٣ كما وأن للاستاذ محمد نورخان أتراً شبيهاً بالأول نشره فى سنة ١٩٣٩ وراجع عن مادة جم ش سامى فى قاموس الأعلام

التركى ، وقد كتبها أحد الشعراء (١٧) بلغة تركية سليمة وبأسلوب ممتع جذاب ، مصوراً الحياة الاجتماعية والأخلاقية عند الأتراك فى العصور القديمة تصويرا بديعاً؛ فيحدثنا فيها عن الحياة العائلية وعن العلاقة الزوجية ، وعن موقف الأولاد من الأسرة ، وكذلك يبحث لنا عن النواحى الثقافية والأدبية بصورة عامة

ويمتاز هذا الدور من تاريخ الأدب التركى بنمو الأدب الجغتائى وتكامله . ولقد سبق أن رأينا أن الأدب التركى كان قد تفرع إلى فروع رئيسية ثلاثة : العثمانى والآذرى والجغتائى . وكلها آداب متشابهة من حيث الروح والجوهر ، وإن كانت مختلفة فى الشكل والمظهر . فنجد أنها جميعاً تنتظم تحت قواعد معينة وقيود متشابهة . فالأشعار فى هذه الآداب التركية الثلاثة بأوزانها وأساليبها ومقاييسها ومفاهيمها متجانسة ومتشابهة إلى حد بعيد ، وإنما الاختلاف كان فى الألفاظ والحروف وفى قواعد اللغة وتنوع اللهجات فى البلاد

وامتاز الأدب الجغتائى فى هذا الدور بنمو الوعى القوى بين شعرائه . وكانت فكرة القومية عندهم تستند على أسس علمية قوية وعلى مبادئ أخلاقية متينة . ويعد الشاعر (على شير نوائى)(١٨) من أعاظم الشعراء الذين قاموا بتمثيل الأدوار الرئيسية لتلك الحركة . فقد سجلها فى كتابه الموسوم بـ « محاكمة اللغتين » ألفه فى المفاضلة بين اللغتين التركية والفارسية ، وترجيح الأولى بعد مقارنة دقيقة على الثانية . فنراه يذكر فى هذا الكتاب على سبيل المثال مئات الألفاظ التركية التى يقصر العثور على مرادفاتها فى اللغة الفارسية .. بل ويتعذر على الفارسى أن يعبر عن معانى تلك الألفاظ من دون أن يلجأ إلى استعمال عدة كلمات مقابل لفظة تركية واحدة .. ونراه بعد ذلك يخلص لنفسه برأى خاص وهو أن اللغة التركية أوسع مادة من الفارسية وأغزر منها موردا

وعلى شير نوائى عالم وأديب وشاعر قدير . نظم الشعر فى اللغتين ، وكان فيهما مبدعا مجيدا . ولقد ذهب البعض — على خلاف الأكثرية — إلى أن على شير كان فارسيا . ولنا فيه رأى نبديه فى عدد قادم من الرسالة

وبقدر ما كانت فكرة الميل إلى اللغة التركية ظاهرة بين الشعراء الجغتائيين فى ذلك الدور ، فإننا نتلمس آثار هذه الفكرة فى كلام الآخرين من الشعراء بوضوح . وفى كتاب « فريبنامه » وقد أشرنا إليه فى أعلاه ، أشعار يستدل منها على أن صاحبها كان متحمساً للأدب التركى واللغة التركية ، حيث يبدى أسفه على وضع اللغة وحالة الترك بقوله :

تورك ديلنه كيمسنه باقماز أيدى
تورك اره هركز كوكل آقماز أيدى . . الخ المقاومة

بمعنى أنه لم يكن هناك من يهتم باللغة التركية ويبالى بها . ولم يكن كذلك من يعطف على الأتراك ويبدى لهم الحنان

شيخى وعجالى

ومما من مشاهير الشعراء الذين عاشوا فى نهاية هذا الدور . ويعتبران بحق من مؤسسى الشعر العثمانى فى القرن الخامس عشر الميلادى . لا يعرف تاريخ ولادتهما على وجه التحقيق . وقيل إن الأول ، واسمه الحقيقى سنان ، توفى سنة ١٤٢٩ م ، والثانى ، واسمه عيسى ، توفى سنة ١٥٠٨ م . وكان شيخى متصوفا سلك طريقة (حاجى بايرام ولى) وله مثنو منظوم بعنوان « خسرو شيرين » وآخر يدعى بـ « خرنامه »(١٩) ويتضمن نصائح وإرشادات على لسان الحيوانات . وله ديوان حققه الأستاذ (على نهاد) ونشره فى سنة ١٩٣٤ — ١٩٣٦ . كما وقام مؤتمر اللغة التركية بطبعة فى سنة ١٩٤٢ . ولنجاتى ديوان يضم أشعاره كلها ، وليس له أثر غيره . وقد اشتهر هذا الشاعر بعد إسلامه إذ كان نصرانيا ووقع أسيراً بيد الأتراك فأسلم واقترب من السلاطين وحظى كثيراً عند بايزيد الثانى . وصاحب أحد

(١٧) ولم يعرف اسمه حتى اليوم

(١٨) وقد ذكرناه سهواً مع بعض الشعراء فى عهد ما قبل العثمانيين

(١٩) ومعناه رسالة فى الحمار

(٢٠) ويذكر لطيف صاحب تذكرة الشعراء أنه اطلع على مائة كتاب فى نظم المولد ، لم يكن واحد منها فى درجة مولد سليمان جلبى . ويشير محمد طاهر البرسوى فى كتابه « عثمانلى مؤلفلرى » الى أسماء ما يقارب الثلاثين « مولدا »